قاسم أمين ودعوته إلى تحرير المرأة من خلال ما كتبه

د. بي بي حامده*

Qasim Amin and his call for the emancipation of women through his writings

Qasim Amin was a lawyer as well as great Egyptian personality who promoted his progressive approach towards women's liberation. He is known as the founder of the Women's Liberation Movement in Egypt. As he practically initiated the Women Liberation Movement that is why he is regarded as founder-leader of the movement.

For this purpose، he wrote and published his three most popular books which are:

١. Tahrir-ul-Mara'h (The Liberation of Women)

٢. Al-Mara'h --- Al-Jadidah (The New Women)

٣. Al-Misriuoon - Difa-anil-Islam-wal-Muslimeen

٤. Al-Misriuoon (The Egyptians) Defense from Islam and Muslims)

In this article I have tried to highlight his thoughts that are presented in his books.

قد عرف قاسم أمين في العالم العربي بـــ "محررالمرأة" مع أن هناك كثير من الرجال من نادى بتعليم المرأة ومساواتها بالرجل ولكنه نال الشهرة من غيره، فهو بطلها و رائدها، لأنه أجمع دعاتها لأطرافها،وأجهرهم بها صوتا وأوضحهم لها حدودا، وأقواهم حملة، ولأنه – منذ بدأ يعلنها _ خصص أعظم جهوده القلمية لها، مضى يبدئ فيها القول ويعيده،كشفا عن مزاياها،وتجديدا لوجهتها وهدفها، وتأييدا لها بالأسانيد الشرعية والعلمية والتاريخية.وقد

* بي بي حامده، المحاضرة بـــــــجناح كالج، جامعة بشاور.

جعل تحريرالمراة هدفا أمام عينيه وقضى حياته كلها في الدعوة إلى قضية تحريرالمرأة. فعرضت في هذا المقال أفكاره قبل انحرافه عن المفاهيم الإسلامية الصحيحة خاصة ما يتعلق بـــالمرأة المصرية المسلمة ثم تدرجه في الإنحراف.وأبرز أفكاره التي دونها في كتابيه (تحريرالمرأة، المرأة الجديدة).

اسمه ونسبه :

قاسم أمين بك ولد في ديسمبر سنة (١٢٧٩هـــ- ١٨٦٣م)في إحــدى قـــرى تسمى طرة فى القاهرة بمصر[١]. وقد كان أبوه محمد بك أمين من أصل تركى ومن رجـــال الجيش الذين طرأوا على مصرمن العراق. أما أسرته فكانت متوسطة الحال كما كانت من الأسرالمحافظة على الأخلاق الكريمة والحياة النبيلة[٢] وكان والده قد حصل علـــى التعلـــيم العسكرى من المدرسة الحربية فى مصر.وقد ارتقى إلى رتبة الأمير الآي.[٣]

نشأته وتعليمه :

قد نشأ وتربى قاسم أمين فى طرة وحصل على التعليم الإبتدائي فى مدرســـة رأس التين من الإسكندرية ثم انتقل بعدها مع والده إلى القاهرة ودخل مدرسة التجهيزية المشهورة بإسم الخديوى.ولم يكن دراسة قاسم أمين محصورة على الكتب الدراسية بل درس الأدب الفرنسي وكتب التاريخ والإجتماع بعمق ثم دخل بعد انتهاءه من تلك المدرسة إلى مدرسة الحقوق والإدارة وحصل عام ١٨٨١م على الليسانس في الحقوق. وفى هذه السنة ذهب إلى فرنسا مع وفد تعليمي ودخل كلية الحقوق فى مونبلية وأكمل بقية الدراسة في الحقـــوق.[٤] وفى أثناء اقامته فى فرنسا تعرف على الشيخ جمال الدين الأفغانى والشيخ محمدعبده واستفاد منهما اللذين كانا يقضيان حياة الغربة عن الوطن ومشغولين فى تجمـــع المـــسلمين ضـــد الإستعمارالغربى وقدألفا تنظيما فى باريس باسم"جمعيةالعروة السياسية" وقد انضم إليه قاسم أمين. وقد صدر هذا التنظيم فى عام ١٨٨٤م جريدة باسم"العروة الوثقى" و نتيجة للأحوال السيئة لم تستمر إصدار الجريدة إلا لعدة شهور وقد اطلع قاسم أمين هذه الجريدة بعمق، و قد تركت أثرا عميقا فى نفسه ثم بعدها عمل قاسم أمين تحت هذه الرغبة والروح المتوقدة الإصلاح الإجتماعى فى مصر[٥].

وقد حصل على الإمتياز والميدالية الذهبية فى امتحان القانون فى فرنسا. وبعد انتهاءه من الدراسة فى فرنسا بقي فى خدمة أستاذه (لرنود) واستفاد عمليا منه وبعد إكماله أربع سنوات فى١٨٨٥م رجع إلى مصروكان عمره حينذاك ٢٢سنة[٦]. وبعد عدة أيام من رجوعه إلى مصر عين مساعدا فى النيابة المختلطة، ثم فى عام١٨٨٧م انسلك فى قسم قضايا الحكومة. و فى سنة ١٨٨٩م عين رئيس النيابة فى بنى سويف، و بقى فى هذا المنصب مدة سنتين[٤] وفى هذه المدة عمل على فك الأسرى المشاركين فى الثورة العرابية فى سجون الحكومة و بعدها انتقل إلى طنطا على نفس المنصب، ومن أهم أعماله هنا شفاعته لعبد الله النديم الذى شارك فى الثورة العرابية لإلغاء حكم الإعدام عليه وذلك بتقديمه إلى رياض باشا[٧] فى القاهرة ليعفو عنه لأنه حكم عليه بالإعدام من قبل ضغط الدول الغربية على الحكومة. و عند ما عفا عنه وحكم عليه باشا بالجلاء إلى الشام فرجع قاسم أمين إلى طنطا بعد صدور هذا الحكم.

و فى عام ١٨٩٢ م عين قاسم أمين نائب القاضي فى محكمة الإستئناف وكان معه اثنين من رفاقه سعد زغلول ويحي ابراهيم و لم يكن يمضي سنتين على هذا المنصب حتى رقي إلى عهدة المستشار وقضى بقية حياته مستشارا.[٨]

وفاته:

وفى ٢٣ ابريل ١٩٠٨م توفي بعد أن كان راجعا من تقرير ألقاه فى نادي المدرسة العليا للطالبات الرومانيات على أثر نوبة قلبية.[٩] وهكذا رحل عن الدنيا فى عمر يناهز ٤٠ سنة.

أهم أعمال قاسم أمين :

اتفق قاسم أمين مع بعض زملاءه ليرسم خريطة جامعة لإخراج طبقة من المتعلمين في المجتمع المصرى. وفي عام ١٩٠٦م رسمت خطة بدائية في بيت سعد زغلول لبناء الجامعة وجعل رئيسها سعد زغلول وسكرتيرها قاسم أمين وعند ما عين سعدزغلول وزيرا للتعليم أسندت صدارة اللجنة إلى قاسم أمين. وفي سنة ١٩٠٨م بعد وفاة قاسم بعدة أشهر افتتحت الجامعة[١٠]. بالإضافة إلى ذلك أقام قاسم أمين الجمعية الخيرية الإسلامية[١١]. ولكنه لاتوجد أي تفصيلات عنها.

لقد صنف قاسم أمين خمسة كتب فى حياته المختصرة و هي:

١- المصريون- رد على دوق داركور.

٢- أسباب ونتائج و أخلاق و مواعظ.

٣- تحرير المرأة.

٤- المرأة الجديدة.

٥- كلمات فى الأخلاق.

فكتاب(أسباب ونتائج وأخلاق ومواعظ)، مجموعة من المقالات التى نشرت فى مجلات وجرائد مختلفة.والذى كان موضوعه المركزى الإصلاح الإجتماعي. وأما كتاب" كلمات فى الأخلاق" عبارة عن تسجيل مختصر لمذكراته عن أفكاره التى كانت تخطر بباله بين حين وآخر.فبعد وفاة قاسم أمين قام بعض أصدقاءه بجمعها فى شكل كتاب ونشروه.

أما كتابه (المصريون) فهوكتاب كتب باللغة الفرنسية. والذى يرد فيه على دوق (داركور).

أما كتاباه (المرأة الجديدة) و(تحريرالمرأة) فهما كتابان اللذان نالا شهرة واسعة من بين كتب قاسم أمين حتى سمي بمحرر المرأة.[١٢]

وللتعرف على أهم كتب قاسم أمين وقراءة أهم الأفكارالتى طرحها فى كتبه والذى كان موضع نقاش وجدال من قبل الكتاب والعلماء والذى أحدث ضجة كبيرة فى الشعب المصري فنذكرأولا أهم كتبه والأفكار التى دعا إليها فيه.ومن ثم نبين مدى صحة هذه الأفكار وتوافقه مع الحقيقة وبيان الخطأ فيه التي دعا إليه "دوق دار كور" ثم نبين رد قاسم أمين عليها.

أولا: المصريون دفاعا عن الإسلام والمسلمين.

سبب تأليفه الكتاب:

هو رد على الدوق داركور الذى ألف كتابا باسم(المصريون) حمل فيه على نساء مصر، وتعدى على الإسلام ونال من الحجاب الإسلامي، وقرار المرأة المسلمة في البيت واقتصار وظيفتها على تربية النشيء، ورعاية الزوج، وقد هاجم (المثقفين) المصريين بصفة

خاصة،لسكوتهم وعدم تمردهم على هذه الأوضاع (المنكرة). فرد عليه قاسم أمين محاولا فيه تفنيد اتهاماته لمصروالمصريين، وبين فيه فضائل الإسلام على المرأة المصرية ورفع من شأن الحجاب، وعده دليلا على كمال المرأة،وحاول شرح الحكمة الإيجابية في قوانين الشرع الإسلامي، إلا أن دفاعه قد بدأ تبريريا، وشرحه قد اتسم بالخنوع والذلة فيقول وكأنه يناشد داركور أن يعتبر (الإسلام) في مرتبة (المجوسية) : إن الإسلام دين خلقي،لايقل عن المجوسية ولا عن المسيحية وأن روح القرآن لا تختلف عن الروح الإنجيلية)[١٣]

أهم الموضوعات التي احتوى كتابه" المصريون دفاعا عن الإسلام والمسلمين":

اشتمل كتابه على أربعة عشرموضوعا حيث كتب عن المصري، والمجتمع المصري، قيمةالمصريين العسكرية، الرق، الحكم، النساء، تعددالزوجات، الطلاق، خواطر في الحب، الدين، الأخلاق، الإسلام والعلم، العلوم والآداب، أوروبا.

ابتدأ كتابه بفصل عن المصري وفيه بين أن أغلب الشعب المصري من الفلاحين ثم بين صفات الفلاح المصري وما يتمتع به من الشجاعة فقال عنه:" أنا أؤكد أن الفلاح لايتوانى أمام الخطر وهما كان أم حقيقة ثابتة، ولا يتقهقر إن هاجمته عصابات من قطاع الطريق وهو يفرغ بندقيته أويقاتل بهراوته بشجاعة كافية..."[١٤] ثم قال :" وعلاوة على ذلك مارس فلاحونا الأسلحة النارية على الدوام وبسهولة كبيرة وهم يستعملونها في حفلا تهم بإستمرار.غيرأنما يخشاه الفلاح المصري أكثر من الموت نفسه إنما هي السلطة! إنها هلع الفلاح! إنها السلطة التي جعلته يرضى بكل الإهانات والمظالم دون احتجاج وهي التي خولت للسيد داركورأن يحضرمجانا مشاهد يؤدب أثناءها "يوناني" فلاحا".[١٥]

وقد رد قاسم أمين مزاعم السيد داركور في تأنف الفلاح المصري التعلم وبين في كتابه أن نسبة المبعوثين إلى الخارج من المصريين تكون فيه نسبة جيدة من الفلاحين فقد ذكرعلى سبيل المثال أن في سنة ١٨٩٣م كان ثلاثة من أبناء الفلاحين من بين الأربعة عشر شابا الذين انهوا دراستهم في الحقوق بباريس. وأن الحكومة تتعهد في عدة مدن أوروبية عدة بعثات تعليمية،ويوجد كثير من أبناء الفلاحين من بينهم. وهذا يدل على الحب الشديد للعلم من قبل المصريين.

وانتقد قاسم أمين تأليف داركور لكتابه على روايات المسافرين معنيا بانتقاء أكثرها طعنا في الإسلام الذى يبغضه من كل قلبه فقال قاسم أمين عنه:" إن السيد داركور لم يشهد مصربل لم يرم مشاهدها إلا من ناحية واحدة، ناحية "خلف الميدالية" ولواقتصرعلى الحديث في أمور شاهدها لهان الأمرولكنه في غالب الأحيان وهذا من تصريحه قد بنى رأيه على أساس المزاعم وعلى ما يسمع وما يقال ولوشيد النظرية على الحديث في أمور شاهدها لهان الأمر ولكنه في غالب الأحيان وهذا من تصريحه قد بنى رأيه على أساس المزاعم وعلى ما يسمع وما يقال وشيد النظرية وما أعزها على قلبه التي يعلن بموجبها تخلف المسلمين الذهني".[١٦]

وهو يتعجب أيضا من نسيان داركور وضع فرنسا التي مرت بها قبل تطورها فيقول قاسم منكرا له: ألم يكن الرجال بفرنسا ضربا من العبيد الملتصقين بحراثة الأرض ؟ ألم يكن أرباب الإقطاع يستغلون بعض الحقوق التي من شأنها أن تخرج شرقيا من سباته الأسطوري؟....حينئذ! إذا لم يمنع كل ذلك الفرنسيين من أن يصبحوا اليوم أمة رائعة عظيمة، فلم يريد السيد داركورأن يكون ماضينا عائقا أبديا في سبيل نهوضنا ؟"[١٧]

ثم يوضح قاسم أمين في الفصل الثاني من كتابه العناصر المكونة للمجتمع المصري الحالي، فقسم المجتمع المصري إلى طبقتين، المصريين الحقيقيين وهم السواد الأعظم من السكان وهم القبط والأقلية وهم من الأتراك واليهود والسوريون وغيرهم من الأوروبيون. ثم رد على دوق داركور في تنديده بإنعدام التفاوت الإجتماعي عند المصريين بعدم وجود طبقات النبلاء كما عند الغرب. فقال قاسم أمين في ذلك: "وكل المقيمين ببلد إسلامي سواء أمام القانون دون اعتبار لفوارق الجنس أواللون"[١٨] ثم عاب الإشتراكية الحالية في أوروبا في زيادة صراعها بين الطبقات. وقد رد على دوق داركور في عدم وصول المسلمين في حالتهم الإجتماعية إلى الكمال. فقال إن الخطأ ليس في منهج الإسلام وإنما فى تطبيقه وقدم أمثلة من الرعيل الأول من المسلمين على ذلك واستخدم لفظة التقاليد الإسلامية للأحكام الشرعية فهو في هذا مخطئ لأن التقاليد من صنع البشر والمنهج الربانى من صنع الإله ثم وضح استعداد المصريين لتقليد الأوروبيين فى حركة الحضارة.

وتحدث فى فصل آخر عن قيمة المصريين العسكرية بأنهم يتمتعون بقدرة عالية من الكفاءة وقدم أمثله من الواقع تؤيد ذلك فى رده على دوق داركور بأن الجند المصريين لايملكون خصلة عسكرية تذكرمع اضطراره الإعتراف بالانتصارات الباهرة للجيش المصرى فى عهد محمدعلي ثم ذكر قاسم أمين شهادات ضباط الإنجليز الذين تولوا القيادة في الجيش المصري.

ثم تحدث قاسم أمين فى فصل آخر عن الرق وفيه بين حكم الإسلام فى الرق وقارن بين معاملة الإسلام للأرقاء ومعاملة أوروبا الأخرى لهم. ونقل فى كتاب عبارات لرجال الكنيسة المشهورين فى أنسهم للرق ثم وضح وضعية الرقيق في مصر واحتلالهم وظائف عالية فى الدولة وهذا دليل على حماية الشريعة الإسلامية لهم[١٩].

وفى فصل النساء كتب قاسم أمين الردعلى دوق داركور فى قوله بأن المسلمين يخفون نساءهم بداعي الغيرة ثم يقول بعد ذلك إن اسناد تلك العادة إلى انعدام الأمن في البلاد مدعما نظريته الجديدة تلك بكون الأقباط والمشارقة يمتثلون لها. ثم يصرح أخيرا بعد كل ذلك بأنها عادة مرتبطة ارتباطا متينا بالإسلام وأنها ليست نزوة دارجة[٢٠]

وقد رد عليه قاسم أمين بأن المرأة المصرية تخرج من البيت لأموركثيرة وأنه بنى رأيه الخطأ،ثم مدح دورالمرأة المصرية في بيتها وأن الحياء الذى تتمتع به لا يعدلها شيئ. واعترف بتأخيرالمرأة المصرية عن الأوروبية فى التعليم وهذا التأخرمسألة مهملة فى الوقت الراهن بيد أن التعليم لم يكن مهملا دائماكما يشهد بذلك العدد الوافر من النساء الشاعرات والكاتبات اللآتي برزن بين المسلمين الأوائل. وأن النساء كن يتمتعن بالحرية المطلقة فى أعمالهن فى فترة عروج المجتمع المسلم وذكرحقوقهن وقارنها بحقوق المرأة اليوم.

وفى فصل عن تعدد الزوجات فقد مدح نظام الإسلام فى تعدد الزوجات وضرب أمثلة كثيرة أنها تؤدي إلى الفساد وكثرة الأولاد وعدم قبض زمام الأمور فيقول : " تعدد الزوجات على العموم كما نرى نظام أسس ليضمن للمرأة الحياة الزوجية وللأطفال أبوة محققة على أن ابن السفاح بضاعة غربية إطلاقا لم تستوطن قط بلادنا "[٢١]. ثم تحدث عن الفكرة الخاطئة عن الأطفال المنحدرين عن أمهات مختلفة يتباغضون ويتشاجرون صباح مساء ولكنه أنكر ذلك وقال لانصيب له من الصحة فقال:" ألا نجد فى فرنسا أطفالا من

أمهات مختلفات يعيشون معا وفى أنسجام تام عند ما يتزوج أحد القرينين إثر وفاة أوطلاق ؟ إن الأمر واحد تماما. إن عدد حالات تعدد الزوجات نادر للغاية بمصر".[٢٢]

وفى فصل عن الطلاق أنكرعلى دوق داركوربأن المرأة المصرية عند ما تتماثل للشيخوخة يتخلى عنها زوجها وقد أنكرعلى القانون الفرنسي مسألة الطلاق بوقوعه أمام المحاكم وأيد ما وضعته الشريعة الإسلامية بين يدي الرجل والمرأة والذي احتفظت به المرأة هى الأخرى لنفسها، لايسمح به في فرنسا إلا فى حالات ثلاث ثم هي خاضعة دوما لتقدير المحاكم" .[٢٣]

وفي فصل عن العلم رد مزاعم دوق داركور فى تأخرالمسلمين فى الفنون والعلوم هو سبب التأثير المشؤوم للإسلام. فذكر قاسم أمين عظماء الإسلام فى كل الفنون ليبين زيف رأيه.

ثانيا: كتاب تحرير المرأة.

سبب تأليفه لهذا الكتاب:

عند ما استنكرقاسم أمين فى كتابه "المصريون" خطة بعض السيدات المصريات اللائي يتشبهن بالأوروبيات فاقتنص بعض خصومه الفرصة، ووشوا به إلى الأميرة " نازلي"[٢٤] بأن قاسما إنما يعنيها هى بهذا التعريض بذم المصريات اللائي تقلدن الإفرنجيات، ويسرن سيرهن لأنه لم يكن فى نساء مصرآنذاك من يتشبه بالنساء الأوروبيات غيرها، فقد كانت الوحيدة التي تختلى بالرجال وتجالسهم فى صالونها الذى افتتحه آنذاك ليكون مركزا تبث منه الدعوة إلى التغريب عامة، وإلى تحريرالمرأة خاصة فغضبت الأميرة مما فعله "قاسم أمين"وهددت،وتوعدت إلى أن أقنع " قاسم " بضرورة تصحيح خطئه والعدول عنه ودفاعه عن الحجاب، فخرج على البلاد كتابه" تحريرالمرأة"

سنه ١٨٩٩م ودعا فيه إلى نفس ما سبق أن دعا إليه مرقص فهمي عدا مسألة زواج المسلمات من الأقباط، وانصرف جهد قاسم أمين فى كتابه إلى التدليل على ما زعمه من أن(حجاب المرأة بوضعه السائد ليس من الإسلام) وتعرض فى كتابه– إلى جانب قضية الحجاب – لقضايا اشتغال المرأة بالشئوون العامة، وتعدد الزوجات، والطلاق وانحاز فى كل هذه القضايا إلى ما يطابق نظرة الغربيين إليها، وحاول أن يسوغ

مسلكه بإسترداد نصوص قرآنية وأحاديث نبوية بعد أن تحرف معانيها ليصرفها فى خدمـــة أفكاره، وليلبس على ضحاياه بأنه لا يريد بالإسلام سوءا،وإنما هو ناصح أمين.[٢٥] وقد كان المؤلف الحقيقي لكتاب تحرير المرأة هو الإمام محمد عبده (١٣٢٣هــ – ١٩٠٥م) و كان له دور في كتاب تحرير المرأة. إن المعروف عن قاسم أمين أنه ليس له إلمام بالعلوم الإسلامية بحيث يمتلك من إضفاء الصبغة الفقهية على كتابه ومن هنا شاع بين الناس وقتها أنه مؤلفه في الحقيقة هوأستاذه محمد عبده.

وقال الدكتورمحمد محمد حسين: (جاء كتاب – تحرير المرأة – مملوءا بالمغالطات الكثيرة وهذا الإتجاه في التفسيرمخالف لكل ماهوثابت متواتر فى تفسيرالنصوص وهوجزء من الإتجاه العام الذى تزعمه الشيخ محمد عبده متذرعا إليه بالدعوة إلى فتح باب الإجتهاد الذي زعم أن الفقهاء أغلقوا بابه.وهويدعوا إلى الملاءمة بين الإسلام وبين الحضارة الغربية)[٢٦]

وقال داود بركات رئيس تحرير الأهرام : (وقد حمل الشيخ محمد عبده الدعوة إلى تحرير المرأة فى دروسه فى الزاوية العباسية بالأزهر، حسب أن الرجل والمرأة يتساويان عند الله، وقد ترددت آراء كثيرة بأن الشيخ محمد عبده كتب بعض فصول الكتاب،أو كان له دور في مراجعتها).[٢٧]

ومماأورده لطفي السيد: (أنه اجتمع في جنيف عام ١٨٩٧م بالشيخ محمد عبـــده وقاسم أمين و "سعد زغلول " وأن " قاسم أمين أخذ يتلوعلى – محمد عبده – فقرأت من كتاب " تحرير المرأة " وصفت بأنه ينم عن أسلوب الشيخ محمدعبده)[٢٨].

بينما نجد أن محمد عمارة يجزم بأن هناك فصول شارك بها محمد عبده في كتاب " تحرير المرأة" لقاسم أمين سنه ١٨٩٩م وعدها انجازات محمد عبده. ومن أبرز أعماله الفكرية في هذه المرحلة فيقول:(.. ففي تحرير المرأة وبالذات في الفصول التي تتناول وجهـــة نظـــر الشريعة والدين في هذه القضية لا يستطيع أن يجتهدها ولا أن يستخلصها كاتب مثل قاسم أمين وأهم من ذلك نجد أحكاما كلية تدل على أن صاحبه قد استقصى بحث هذا الأمرفي جميع مصادره الرئيسية في الفكرالإسلامي على إختلاف مذاهبه وتياراته الفكرية وهو الأمر الذي لا نعتقد أنه قد توافرفي ذلك العصرسوى لقلة، وفى مقدمتهم جميعا الأستاذ الإمـــام محمد عبده).[٢٩]

أهم الموضوعات التي احتوى كتابه :

وقد تناول قاسم أمين فى كتابه هذا أربع مسائل وهي: الحجاب، وإشتغال المرأة بالشؤون العامة، وتعدد الزوجات والطلاق، و هو يذهب فى كل مسألة من هذه المسائل إلى ما يطابق مذهب الغربيين زاعما أن ذلك هو مذهب الإسلام.

إشتمل كتاب تحرير المرأة على ١٦٢ صفحة بدأها بمقدمة ثم تمهيد وبعدها كتب فصلا عن تربية المرأة ووظيفة المرأة فى الهيئة الإجتماعية ووظيفتها فى العائلة ثم أعقب بفصل عن حجاب النساء والحجاب من الجهة الدينية والحجاب من الجهة الإجتماعية. ثم كتب فصلا عن المرأة والأمومة وفصلا عن العائلة وتحدث عن الزواج وتعدد الزوجات والطلاق ثم الخاتمة فى الدعوة إلى الأخذ بالعلم والعزيمة فى الإصلاح. وقد اتجه المؤلف إلى كل المسلمين لاسيما الأمة العربية ولذلك أثارت كثير من المعارضة لما احتواه من المغالطات.

المقدمة: وهي نحوصفحتين فيوضح فيه قاسم أمين أن :" كل مسئلة من المسائل التي أجملتها فى هذه الأسطر القليلة يصح أن تكون موضوعا لكتاب على حدة".[٣٠] ولكنه اختصرفيها عمدا لترتبط كحلقا ت سلسة واحدة، وغاية أمله منه لفت الأذهان إلى موضوع يقل عدد المفكرين فيه،لا وضع كتاب واف فى شأن المرأة ومكانتها من الوجود الإنساني ويقول :" وقد يوضع هذا الكتاب بعد سنين، متى نبتت هذه البذرة الصغيرة، ونما نباتها فى أذهان أولاد نا،

وظهرت ثمراتها،وعملوا على إقتطافها والإنتفاع بها".[٣١]

ثم يمضى فيوضح أن مراده من الإصلاح بعيد الشقة كثيرالمشقة، وأنه هو لايطمح في تحقيقه قريبا" لأن تحويل النفوس إلى وجهة الكمال فى شئونها مما لايسهل تحقيقه وإنما يظهر أثر العاملين فيه ببطء شديد فى أثناء حركته الخفية".[٣٢]

ثم يختم المقدمة بدعوة المتعلمين إلى نهج طريقه ونشر ما أودعه فى كتابه من أفكار.

وأما التمهيد: فهو فصل من الكتاب، وإن سماه المؤلف تمهيدا، وأما موضوعه فواضح من عنوانه "حالة المرأة فى الهيئة الإجتماعية تابعة لحالة الآداب في الأمة " فهو بحث تاريخى سياسي اجتماعي لبيان حقيقة مكانة المرأة في المجتمع،والمؤلف عمد في كتابه إلى منهج البحث والمناقشة وقدم آراءه بأدلة مختلفة من القرآن والسنة وأقوال الفقهاء ليقنع

القارئ برأيه الذى يدعوا إليه. ونجده في التمهيد أنه كان متوقعا ما سوف تثيره مقالاته من ردود فعل عنيفة فى المجتمع المصري المحافظ إذ ينبه منذ البداية إلى بعض القوم بأنهم سيقولون " أن ما أنشره اليوم بدعة. فأقول نعم أتيت ببدعة ولكنها ليست فى الإسلام. بل فى العوائد وطرق المعاملة التي يحمد طلب الكمال فيها "[٣٣]. ثم يوضح معنى العادة وإنها " إصطلاح الأمه على طريقة خاصة في معيشتهم ومعاملاتهم حسبما يوافق الزمان والمكان،فهى لابد أن تتغير، لأنها من ثمارعقل الإنسان كما يدرك مصالحه، وهذا كله مختلف بإختلاف الأماكن والأزمنة، وشواهد ذلك اختلاف عوائد المسلمين من بلد عن بلد، ومن زمن إلى زمن، وكذلك غيرهم من بدو وحضر، وجماعات جاهلة أو متوحشة وأخرى متعلمة أومتمدنة، ولا سبيل لتخلص أمة من عوائدها إلا بتحول نفوسها وارتفاع درجتها فى العقل"[٣٤]. ثم يقرر قاسم أمين أن وضع النساء فى كل أمة يختلف بإختلاف درجة رقي وتمدن المجتمع الذي تعيش فيه". ففى البلاد التي إرتفعت إلى درجة عظيمة من التمدن فإنا نرى النساء أخذن يرتقين شيئا من الإنحطاط السابق وصرن يقطعن المسافات التي كانت تبعدهن عن الرجال....هذه تحبو وتلك تخطو وهذه تمشي وتلك تعدد كل ذلك. بحسب حال الجمعية التي تنتسب إليها ودرجة المدنية فيها، فالمرأة الأمريكية فى أول صف ثم تتلوها الإنجليزية، وتأتي بعدها الألمانية وتليها الفرنسية ثم النمساوية ثم الروسية...الخ"[٣٥].

ويرى المؤلف أنه ولوكان لدين ما سلطة قاضية على العوائد المخالفة له لكانت المرأة المسلمة اليوم فى مقدمة نساء الأرض وقد" سبق الشرع الإسلامي كل شريعة سواه في تقرير مساواة المرأة للرجل فأعلن حريتها واستقلالها يوم كانت فى حضيض الإنحطاط عند جميع الأمم وخولها كل حقوق الإنسان واعتبر لها كفاءة شرعية لا تنقص عن كفاءة الرجل في جميع الأحوال المدنية من غير أن يتوقف تصرفها على اذن أبيها أو زوجها و لم تصل إلى هذه المزايا بعض النساء الغربيات حتى اليوم".[٣٦] ثم يبين المؤلف براءة الإسلام من تهمة انحطاط المرأة المسلمة وأن ما وصلت إليه المرأة المسلمة من انحطاط وظلم هوالعادات والأخلاق السيئة التي دخلت باسم الإسلام البلاد الإسلامية.وكان أكبرعامل فى استمرارها توالي الحكومات الإستبدادية عليهاومن ثم عدد المؤلف مظاهر احتقار المرأة وظلمها.ثم بين أن حالة المرأة المصرية تحسنت أخيرا، بأن نالت كرامتها فى الحياة العائلية وشاركوها فى

الخروج والنزهة. وهذا احترام جديد لا يسلم من انتقاد، ولا سبب لهذا الإ نتقاد إلا أحوال تحف به، وأهمها رسوخ عادة الحجاب فى نفوس الجمهور ونقص تربية النساء. فلوكملت تربية النساء على مقتضى هداية الدين، وقواعد الأدب، ووقف الناس بالحجاب عند الحد المعروف فى أغلب المذاهب الإسلامية سقطت كل تلك الإنتقادات وأمكن للأمة أن تنتفع بجميع أفرادها نساء ورجالا"[٣٧]. لقد أرجع قاسم أمين السبب الأهم فى انحطاط المرأة هو رسوخ عادة الحجاب ومراده منه انتقاب المرأة المسلمة الذي يمنع الإختلاط وهذه دعوة صريحة إلى سقوطه والدعوة إلى المجتمع المختلط ينتفع فيه النساء والرجال من بعضهم!.

وفي فصل تربية المرأة، يقرر قاسم أمين أن المرأة انسان فى أعضائها ووظائفها واحساسها وفكرها، وفى كل ما تقتضيه حقيقة الإنسان من حيث هو إنسان ولا تختلف عن الرجل إلابقدرما يستوعبه إختلافهما فى الصنف، وإذا كان الرجل قد فاقها قوة بدن وعقل، فمن أسباب ذلك أنه اشتغل بالعمل والفكرأجيالا طوالا،على حين قهرت المرأة على لزوم الإنحطاط، وبلغ من اهمالها أن تساءل بعض النساء هل يجوز شرعا تعليمها القراءة والكتابة أم هوحرام"[٣٨]. ثم دعا أن تتعلم المرأة ما يتعلمه الصبى فى المرحلة الإبتدائية من مبادئ العلوم لإختيار ما يوافق ذوقها منها بعد ذلك، كى تشتغل به إذا شاءت" فإذا تعلمت المرأة القراءة والكتابة واطلعت على أصول الحقائق العلمية وعرفت مواقع البلاد وأجالت النظر في تاريخ الأمم ووقفت على شئ من علم الهيئة والعلوم الطبيعية وغيرها لاستعد عقلها لقبول الآراء السليمة وطرح الخرافات والأباطيل التي تفتك الآن بعقول النساء"[٣٩]، ثم دعا إلى تربية المرأة على الفضائل الإجتماعية التي يظهر أثرها فى نظام الأسرة ونظام الأمة، حتى تصير تلك الفضائل ملكات راسخة فى نفسها، ولا يتم له ذلك إلا بالإرشاد القولي والقدوة الصالحة".[٤٠]

فبالنسبة للوظيفة الإجتماعية نادى قاسم أمين بضرورة تعلم المرأة لأنهن نصف السكان على الأقل فى كل بلد فيقول :" بقاؤهن فى الجهل حرمان من الإنتفاع بأعمال نصف عدد الأمة وفيه من الضرر الجسيم مالا يخفي"[٤١]. ثم بين قاسم أمين فائدة تعلم المرأة فى أن تعيل نفسها عند فقد عائلها الذي يتولى النفقة عليها. فيقول :" النساء يحتجن إلى

التعليم ليمكنهن القيام بعمل يسد حاجتهن وحاجات أولادهن إن كان لهن أولاد. أما تجريدهن عن العلم فيلجئهن إلى طلب الرزق بالوسائل المخالفة للآداب أو إلى التطفل على بعض العائلات الكريمة"[٤٢].

لقد نسي قاسم أمين حكم الشريعة في من بقيت من النساء بغير كفيل من الاقرباء بأن بيت المال كفل لها النفقة لكي لا تلجأ إلى الطرق الغيرالأخلاقية. وإن وجدت بعض مثل هذه الحالات فهي نادرة لايقاس عليها.ثم يقول:"والشرائع الإلهية والقوانين الوضعية تخاطب النساء كما تخاطب الرجال. باعتبار أنها وهبت مثله العقل ووسائلا لإدراك. وهي لم تمنح ذلك عبثا بل لتستعمله لا لتهمله، وحرمانها من التربية فى الماضي هو الذي باعد بينها وبين الرجل فى الفهم والشعور، وأعجزها عن إرضاء زوجها وتربية أولادها وتدبير بيتها كما ينبغي لها والنساء أمهاتنا وبناتنا وأخواتنا وزوجاتنا وهن زينة حياتنا. بل هن نحن ونحن هن،ولا كمال للرجل والمرأة ناقصة، ولا سعادة للرجال إلا بالنساء، ومن يعتمد على امرأة جاهلة كان كأعمى يقود أعمى ليسقطا معا فى أول هاوية.[٤٣]

وأما بالنسبة للوظيفة العائلية: فإن جهل المرأة يؤدى إلى شقاء الرجل والمرأة معا فى العائلة. والمرأة في الطبقة العالية أوالوسطى متأخرة عن الرجل بمسافات شاسعة نتيجة جهل المرأة بما يؤدي إلى عدم تبادل الأحاسيس والمشاعر بين الزوجين مما يؤدى إلى تنافر الزوجين والسبب هو اختلافهما فى التربية، واللذة المعنوية التي تحصل من التربية للمرأة والرجل لا تفنى. وإذا لم يوجد بينهما التناسب فى التربية والتعليم لا يمكن أن يوجد الحب. ثم تحدث عن جهل المرأة المصرية لزوجها من قيمة زوجها العقلية والأدبية وسيرته وطهارة ذمته ودقة احساسه،وعلى هذا أول من يجهل الرجل زوجته.فكيف يظن أنها تحبه؟ ثم بين أثرالعلم فى تربية الطفل.قارن بين تربية المرأة المصرية والمرأة الغربية. وقد رد على اعتراض وهو أن المرأة يفسد التعليم أخلاقها. وأيضا أن تعليم المرأة والعفة لا يجتمعان. وقال الأقدمون فى ذلك أقوالا طويلة وحكايات غريبة ونوادر سخيفة استدلوا بها على نقصان عقل المرأة واستعدادها للغش والحيلة.[٤٤]

فأجاب بأن التعليم إذا كان مصحوبا بتهذيب الأخلاق يرفع المرأة ويــرد إليهــا مرتبتهــا واعتبا رها ويكمل عقلها ويسمح لها أن تفكر وتتأمل وتتبصر فى أعمالها[٤٥]. وأن العلم يزيد من صلاح المرأة وتقواها إن كانت المرأة صالحة، وإن كانت فاجرة لم يزدهــا العلم فجورا.فأثر التعليم لا يمكن أن يكون ضررا محضا. ولا يمكن أن يكون منشأ حقيقيا لضرر. ثم مدح نساء الإفرنج بأن ظواهرهن على العموم أحسن بالنسبة لنساءنا العفيفات. فقال:"إن نساء الإفرنج على العموم مهما كان حالهن فى الباطن يحافظن علــى الظــواهر فيعيش الواحد بين رجل وامرأة يحب بعضهما بعضا أيام وأشهرا ولايكاد تقع منهما هفوة تظهر ما كان خافيا بينهما وتراهن فى الطريق سائرات مرتديات بجلابيب الجد والــسكينة والوقار يغضضن أبصارهن عن الرجال وإن نظرن إليهم فمن طرف خفي. أمــا نــساؤنا العفيفات فيغلب فيهن أن يكون باطنهن خيرا من ظاهرهن ومتى رأت الواحدة منهن رجلا نظرت إليه وتأملته والتفتت نحوه و لوت عنقها إليه ولا شعورلها بأن مثل هذه الحركات التي تصدر منها من غير تمييز تخل بشأنها وتحط من قيمتها واعتبارها".[٤٦]

أما عن الحجاب فقد عقد قاسم أمين فصلا فى ٤٠ صفحة (ربع الكتاب تماما) بسط فيه رأيه بكل صراحة. وفى هذا الفصل يشير قاسم أمين إلى قصته مع الدوق داركور وكتابــــــه"المصريون" ويشير إلى أنه فى رده عليه مجملا قد دافع عن الحجاب وأنه هنا يريــــــد أن يعرف ما هو الحجاب وما الحد الذى يجب أن يكون عليه.وأنه لم يرد أن يدافع عنه وأنه يعتبره " أصلا من أصول الأدب التى يلزم التمسك بها.غيرأني اطلب أن يكون منطبقا على ما جاء فى الشريعة الإسلامية".[٤٧]

وهوفيها يختلف عن الحجاب المتعارف عندنا حسب رأيه. لأن الناس غــالوا في الإحتياط، وفيما يظنونه عملا بالأحكام الشرعية حتى تجاوزوا حدودها، وأضروا بمــصالح الأمة. والغربيون قد توغلوا فى إباحته إلى درجة يصعب معها أن تتصون المرأة من التعرض لمثارات الشهوة. ثم يزعم أن المسلمين تغالوا فى طلب التحجب حتى حرموا المرأة من كل المزايا العقلية والأدبية ومن ثم يدعوا قاسم أمين إلى حجاب وسط بين المغالاة فى الكــشف والمغالاة فى التحجب وهوالحجاب الشرعي الذي يدعوا إليه. فيقول :" إن الشريعة لــيس فيها نص يوجب الحجاب على الطريقة المعهودة وإنماهي عادة عرضت للمسلمين من مخالطة

بعض الأمم، فاستحسنوها وأخذوا بها، وألبسوها لباس الدين، كسائرالعادات الضارة التي تمكنت فى الناس باسم الدين والدين منها براء".[٤٨] ثم قدم أمثله لعادات أخرى في المجتمع من عدم أكل أم الرجل أو أخته أو بنته مع الرجل على مائدة واحدة وكذلك خروج المرأة من بيتها قبل عشرين سنة. واليوم فقد أخذت هــــذه العادات فى الزوال. وكذلك أرجع الحجاب إلى العادة وأنها آخذة إلى الزوال واعتبرها دور من الأدوارالتاريخية لحياة المـــرأة فى العالم واستشهد لكلامه لأحد المؤرخين الغربيين فى تدرج الزوال للحجاب عند المسيحيين. واستدل على هذا الدليل بأن الحجاب ليس مختص بالمسلمين وحدهم ولكنه" كانت عادة معروفة عند كل الأمم تقريبا ثم تلاشت طوعا لمقتضيات الإجتماع وجريا على سنة التقدم والترقي ".[٤٩]

ثم بحث الحجاب من الجهة الدينية والإجتماعية : فمن الجهة الدينية يزعم المؤلف أنه لوجاءت فى الشريعة الإسلامية نصوص تقضى بالحجاب كما هو معروف الآن فى شكله لتجنب البحث فيه، لأن الإذعان للأوامر الإلهية واجب دون مناقشة أو بحث. ولكنه لا يجد نصا صريحا ولذلك هو يرجعها إلى العادة. ولذا هو يرى واجبا عليه أن يبين حكم الشريعة فى شأنها والدعوة إلى تغييرها ثم مضى المؤلف يذكر نص القرآن الكريم فى الحجاب قولــه تعالى : قُلْ لِلْمُؤْمِنِيْنَ يَغُضُّوْا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ..الخ ".[٥٠] وعلق على أن النص يبـــيح للمـــرأة إظهار بعض أعضاءها أمام الأجنبي عنها دون تسمية تلك المواضع.وأن العلمـــاء وكلـــت فهمها إلى ماكان معروفافى العادة وقت الخطاب.

واتفق الأئمة على أن الوجه والكفين مما شمله الإستثناء فى الآية ووقع الخـــلاف بينهم فى أعضاء أخرى كالذراعين والقدمين ثم نقل عن بعض كتب المذاهب ما يؤيد اباحة كشف القدمين لإبتلاء الناس بإظهارهما. ويمضى قاسم أمين فى التدليل على فساد الحجاب فيقول : خولت الشريعة للمرأة ما للرجل من الحقوق وألقت عليها تبعة أعمالهـــا المدنيـــة والجنائية فللمرأة الحق فى إدارة أموالها والتصرف فيها بنفسها. فكيف يمكن لرجل أن يتعاقد معها من غيرأن يراها ويتحقق شخصيتها..... وكثيرا ما أظهرت الوقائع القضائية سهولة استعمال الغش والتزوير فى مثل هذه الأحوال ".[٥١]

وكذلك استنكربأنه كيف يمكن " للمحجبة أن تتخذ صناعة أو تجارة تعيش منها إن كانت فقيرة ؟ وكيف...... وكيف.......الخ[٥٢] وكذلك قال: " إذا وقفت المـــرأة في بعض مواقف القضاء خصما أوشاهدا كيف أن يسوغ لها ستر وجهها ؟".[٥٣] ثم ذكر جواز أئمة المذاهب بالنظر للمخطوبة من الخاطب التي يريد أن يتزوجها. وقد ذكر قاسم أمـــين شبهة خوف الفتنة من كشف المرأة وجهها فقال : فمن خاف الفتنة، غض بصره رجـــلا كان أو امرأة، وغض البصر مطلوب من الفريقين على السواء،وبعض أشكال النقاب تحيله زينة تغرى بالفتنة، وفى انكشاف الوجه مايمنع معاودة تجسس النظر إليه، ولا تقتصر الفتنة على الأعضاء الظاهرة، ففي المشي وتغطية الجسم ما هوأشد فتنة، والنقاب يخفي شخـــصية المرأة فتستطيع إتيان ما تشتهيه، ولكن انكشاف وجهها يكشف شخصيتها، وقد أمرالقرآن الكريم المرأة أن تضرب خمارها على جيبها، وهذا يختلف عـــن المعهـــود الآن فى البرقـــع والنقاب.وقد اعتبرهما من العادات القديمة السابقة على الإسلام والباقية بعـــده،وإنما مـــن مشروعات الإسلام ضرب الخمر على الجيوب".[٥٤]

ثم ينتقل قاسم أمين إلى الكلام عن الحجاب بمعنى قـــصرالمرأة فى بيتـــها وحظـــر مخالطتها للرجال. فيقول :"إن الحجاب بهذا المعنى هو تشريع خاص بنساء النبى صـــلى الله عليه وسلم. ويستشهد على ذلك بالآيتين :" يَاأَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا لا تَدْخُلُوْا بُيُوْتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ.....إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللهِ عَظِيْماً"[٥٥]. وَ"يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَـــدٍ مِـــنَ النِّسَاءِ.......الجَاهِلِيَّةِ الأُوْلَى).[٥٦] فقال : هذا الحجاب ليس بفرض ولا بواجب على أحد من نساء المسلمين".[٥٧] أما نساء المسلمين عامة فهن- فى زعمه - منهيات عـــن الخلـــوة بالأجنبي فقط. ويستشهدعلى ذلك بما ينقل عن الطبرى من قصة عمربن الخطاب رضى الله تعالى عنه وقد دخل عليه ضيف فأمرلـــه بالغـــذاء ودعـــا زوجتـــه (أم كلثـــوم) إلى مشاركتهما.وهذه القصة موضوعة على الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه و لا سند لها من الواقع عند علماء الحديث.

أما الحجاب إجتماعيا فقال بمرده إلى الشريعة الإسلامية، لا إلى مزاج أحد، أو ذوقه أواستحسانه، أوالتمسك بعادة ما دمنا بصدد البحث عما به قوام المرأة، وقوام حياتنا، وقد إعتبر قاسم أمين الحجاب من أهم المسائل فى الأمة التي يجب أن ينظر إليه نظرة فحص

صحيحة من جميع جهاتها، وأن الحجاب الذي ألفناه مانع عظيم يحول بين المرأة وارتقائها و بذلك يحول بين الأمة وتقدمها".[٥٨]

ثم ارتبط بين تربية المرأة وما لها من المزايا الجليلة والآثار الحسنة التي تترتب عليها فى شئوون نفسها وشؤون بيتها وفى الإجتماع الذي هي فيه بالحجاب. وقال : إن تربية الأم نفسها لا يمكن أن تتم إذا إستمرحجاب النساء على ما هو عليه الآن. واستدل على رأيه بأن البنت عندما تتعلم فى المرحلة الإبتدائية كالصبى ثم تحبس فى البيت تصبح كالبنت الجاهلـــة لأنها تنسى وكذلك قال بأن عزل المرأة عند بلوغها فى مترل يؤدي إلى انحطاط تدريجي فى قواها العقلية والأدبية. وقد رأى قاسم أمين أن حبس المرأة فى بيتها عند بلوغها ضياع ماكسبته بالتعلم وحرمانها من الترقي فى مستقبل العمر. ثم وضح مفهوم التربية بأنه ليس تخزين كمية من المعارف المقررة فى بروجرامات المدارس ثم امتحان ثم شهادة لـــيس بعدها إلا البطالة والجمود وإنما هي العمل المستمر من يوم الولادة ولا ينتهي إلا بالموت".[٥٩] ثم يمضى قاسم أمين فى حديثه عن مضارالحجاب بأنه يؤدي إلى افساد صحة النساء نفسيا وجسديا وعصبيا فيقول : وقد جرنا حبنا لحجاب النساء إلى افساد صحتهن فألزمنـــاهن القعود فى المساكن وحرمناهن الهواء والشمس وسائر أنواع الرياضة البدنية والعقلية وأهن عشن عليلات الجسم والروح و لم يذقن شيئا من لذة هذه الحياة الدنيا".[٦٠] ثم يمـــضي فى حديثه فيقول:"لذلك كان أغلب نسائنا مصابا بالتشحم وفقرالدم".[٦١] وقد رد قاسم أمين على القول بأن الحجاب موجب العفة وعدمه مجلبة للفساد، فقال :"ومن المعروف أن لطرق معيشة الأمة ومزاجها واقليمها وآدابها وتربيتها دخلا عظيما فى فساد أخلاقها وصلاحها. لأن ازدياد النساء فى البلاد ونقصه مما يرتبط بأمور كثيرة ليس الحجاب أهمها "[٦٢] ثم ضرب قاسم أمين مثالا للعفة للنساء الأمريكيات اللواتي أكثرالنساء فى العالم إختلاطا بخلاف نساء العرب المحجبات أكثر خرقا للعفة ثم عرف قاسم أمين العفة فى رأيه فيقول: " هي خلـــق للنفس تمتنع به من مقارفة الشهوة مع القدرة عليها. فالعفة التي تكلف بها النساء يجـــب أن تكون من كسبهن ومما يقع تحت إختيارهن لا أن يكن مستكرهات عليها وإلا فلا ثـــواب لهن فى مجرد الكف عن المنكر".[٦٣]

وأورد دليلا من الحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم:"من عشق فعف فكتم فمات فهو شهيد "-وهذا حديث ضعيف عند علماء الحديث-ثم قال قاسم أمين إن فساد المرأة لايتأتى من الإختلاط بالرجل فحسب،بل يأتى أيضا من الإختلاط بالفاسدات.وحبس النساء فى البيوت لايمنع سريان الفساد إليهن.وقد أرجع فساد النساء إلى سوءالتربية وأن حسن التربية "هي الحجاب المنيع والحصن الحصين بين المرأة وبين كل فساد يتوهم فى أية درجة وصلت إليها المرأة من الحرية والإطلاق.[٦٤]

وفى معرض الرد على سؤال يناقض كلامه فيقول: إن الإطلاق ربما زاد في فساد المرأة. فيجيب عليه قاسم أمين:"إن الإطلاق الذي نطالب به هو محدود يحظر الخلوة مع أجنبي"[٦٥] و"حسن التربية واستقلال الإرادة هما العاملان فى تقدم الرجال في كل زمان و مكان، كذلك هي عاملان في تقدم النساء"[٦٦] ثم استرسل قاسم أمين حديثه فى مضار الحجاب اقتصاديا بأن العرب يقدمون للضيوف مائدتين بدل واحدة لحجاب النساء عن الرجل بخلاف الغربيين فإنهم يقدمون على سفرة واحدة للنساء والرجال معا. ثم ختم قاسم أمين هذا الفصل بالدعوة إلى التدريج فى نزع الحجاب والمراد منه الدعوة إلى الإختلاط بين النساء والرجال وهو بإعداد نفوس البنات فى زمن الصبا إلى هذا التغيير فيقول : " فيعودن بالتدريج على الإستقلال ويودع فيهن الإعتقاد بأن العفة ملكة فى النفس لا ثوب يختفي دونه الجسم. ثم يعودن على معاملة الرجال من أقارب وأجانب مع المحافظة على الحدود الشرعية وأصول الأدب تحت ملاحظة أوليآئهن. عند ذلك يسهل عليهن الإستمرار فى معاملة الرجال بدون أدنى خطر يترتب على ذلك اللهم إلا فى أحوال مستثناة لا تخلو منها محجبة ولا بادية".[٦٧]

أما فصل المرأة والأمة :

ففى هذا الفصل يقرر المؤلف أن أمتنا لم يتهيأ لها من فرص التقدم ما تهيأ لها اليوم، ولا تعرضت للأخطار، كما تعرضت لها اليوم. فإن تمدن الأمم الغربية يتقدم بسرعة البخار والكهرباء حتى عمت كل بلاد العالم، وكلما دخل فى مكان استولى على منابع ثروتها من زراعة وصناعة وتجارة.واستنزفها، وسخرأهلها لمصلحته وحده ولا يترك لهم من خيراتها غيرما يبقيهم لخدمته،وهوغالبا يستعمل عقله فإذا لم تسعفه الحيلة استعمل العنف. وهو فى

ذلك لا يطلب الفخار، بل الثراء، وذلك بتحصيل ثروات البلاد الأخرى، ولا سبيل للنجاة من الإضمحلال والفناء إلا بإتخاذ مثل قوته أوأشد،ولاسيماالقوة المعنوية "قوة العقل والعلم التي هي أساس كل قوة " ولا وسيلة لذلك غير تربية كل أفراد الأمــة رجالا ونساء وخلع العادات السيئة، وعدم اعتماد الجماهير فى ذلك على أي حكومة بل على أنفسهم، فلا بد أن يتحملوا مسئولياتهم، ولا ينتظروا من الحكومة إلا ما هو من شأنها وحدها دون الأفراد والهيئات".[٦٨] و" أن تأخر المسلمين عام، وليس لإختلاف شعوبهم وأقاليمهم أثرفيه، بدليل تخلفهم جميعا، وليس شئ يجمع المسلمين غير الإسلام،ولهذا اتهمه كثير من الغربيين وبعض المسلمين أنفسهم بأنه سبب التخلف وهو برئ منه، وكل من عرف حقيقة الإسلام مــن أبنائه،بل من الأجانب أيضا يعظم قدره، ويعترف بفضله فى نهضة كثير من الأمــم الــتي اتصلت به. وقد وضح المؤلف أثرالإسلام فى رقي الشعوب التي اعتنقته يوم كان المسلمون لايتركون فرعا من العلوم ولا فنا من الفنون إلا تعلموه وألفوا فيه وزادوا عليه ولكن كثيرا مما يزعمه بعض المسلمين دينا لاعلاقه له بالدين،بل بدع الصقت به.[٦٩] فاشتغلوا بــالعلوم الطبيعية والرياضيات والفلسفة والأخلاق وتوسعوا فى الصناعة والتجارة، وبنوا الأســاطيل تجرى فى البحار للتجارة وللحرب، واستمر ذلك على تفاوت بحسب الأزمــان ثم ابتلــوا بوقائع التتار، فزالت الخلافة فى الشرق، وزالت دولة العرب فى الأندلس، وانتقلت العلــوم الإسلامية إلى أوربا فرجع المسلمون إلى التخلف كالجاهلية الأولى ومنذ ذلك"انطفأ مصباح العلم فى الشرق بأجمعه واقتصرعلماء الإسلام على النظرفى شئ من علوم الكلام وبعض شئ من قواعد اللغة وانصرفوا عن كل شئ عداها".[٧٠] ولما ساد الجهل على عقولهم عجزواعن فهم حقيقة الإسلام وهنا انطبقت البلية بكل ظلماتها وظلمها، واستمر الحال كذلك، حتى ظهرأخيرا علماء متعمقون مضوا يكشفون حقيقة الإسلام، إذ رجعوا إلى القرآن والحديث دون أقوال المحققين من أهل المتون والشروح والحواشى، فدعوا إلى ما دعا إليــه القــرآن والحديث من تحرير العقل والإشتغال بكل حرفة تنفع الناس، فإن انحطاط العقول هوالذي شوه الدين وحال دون الترقي . وبصلاح العقول وتفتحها تصلح الأمة ويعود للــدين صلاحــه.

ثم بين المؤلـــف أن المرأة لا تكون خلقا كاملا حتى تتم تربيتها جسميا وعقليا، وسلامة العقل ترتبط بسلامة الجسم سواء في الرجال أوالنساء وصلاح الرجـــال بـــصلاح النساء، لأن المرأة أم العائلة وميزالها، فليست تربيتها من الكماليات بل هـــي مـــن الـــزم الضرورات لمصلحة الرجال والأمة جمعاء.[٧١] ثم ذكر المؤلف تأسفه من عدم مشاركة المرأة اليوم كما تعمل المرأة فى الأمم المتمدنة. وقد ذكر طائفة من النساء كان لهن أثرفى المجتمع فى مبدأ الإسلام ومنهن بالأخص عائشة رضى الله تعالى عنها، فى معارضتها لأحد الخلفاء وقد ورد خطبة لهـــــا.

لقد أخطأ المؤلف فى استدلاله لرأيه بتصويره عائشة رضى الله تعالى عنها رئيسة للحزب المعارض لأحد الخلفاء، فلم يكن هناك حزبا يقوده السيدة عائشة رضى الله تعالى عنها وإنما كانت تجتهد في رأيها فلا يصلح بهذا الإستدلال على قيادة المرأة للحزب.وأن موازنة المؤلف بين أم عطية –رضى الله تعالى عنها – وبين المرأة اليوم مغالطة كبيــــرة. وملخص موضوعه "لا بد لحسن حال الأمة من أن تحسن حال المرأة".[٧٢]

وفى فصل العائلة يتكلم المؤلف على أهم المسائل التي تمس المرأة فى العائلة وهـــي الزواج وتعدد الزوجات والطلاق، وبين أن الزواج عند الفقهاء عقد يملك به الرجـــل الإستمتاع بالمرأة وهذا يختلف عن معناه فى القرآن الكريم القائل:" وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوْا إِلَيْهَا، وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ".[٧٣]

وقد الهم العلماء الكرام سوء فهم الآية وغفل الناس عن واجبات الزوجين قبـــل الزواج وبعده، فهو يدعوا كلا الزوجين إلى معاينة أحدهما للآخر ولا يغنى وصف الأم أو الأخت للزوجة أو الزوج شريك الحياة لأنه أحيانا قد يألف الإنسان الإنسان القبيح عندما يتكلم معه ويتعامل معه وينفر الإنسان من انسان جميل عند التحدث إليه فقاسم أمين يدعوا الرجل والمرأة قبل العقد إلى التعرف أحدهما على الآخر ومعرفة عادات وأخلاق كل منهما للآخر حتى يكون التوافق. واستشهد لرأيه ببعض الأقوال الضعيفة ثم يقول بإعطاء المـــرأة الحق فى إختيار شريك حياتها ورؤيته وأن المرأة تحرم مـــن حقهـــا فى مجتمعنـــا بإســـم العادات.والشريعة قد أعطت المرأة حقها فى إختيار الزوج واستشهد لرأيه بآيات وأحاديث نتفق مع قاسم أمين فى رؤية المخطوبة لخطيبها ولكن التعارف الذي يدعوا إلى دراسة كل

خطيب لخطيبته لمعرفة عاداته وأخلاقه ليكون بينهما التوافق فى مستقبل الحياة الزوجية على نهج الحياة الغربية فإنه يؤدى إلى الإختلاط بين الرجال و النساء وكذلك يفتح بابا لمن تسول له نفسه للتمتع بالحرام بحجة التعارف على المرأة للزواج بها.[٧٤]

أما عن تعدد الزوجات فهو فى نظر قاسم أمين كسائر أنواع الحلال تعتريه الأحكام الشرعية من المنع والكراهة بحسب ما يترتب عليه من المصالح أو المفاسد، فإذا غلب الجور أو نشأ من التعدد فساد فى العلاقات العائلية أو مجاوزة لحدود الشريعة فلأولي الأمر أن يمنعوه بشرط أوبغيرشرط على حسب ما يرونه موافقا للمصالح العامة. وقد رأى قاسم أمين فى تعدد الزوجات تحقيرا للمرأة، فمثلما الرجل لا يحب أن يشاركه أحد في حب زوجته كذلك المرأة وأن المرأة التي تحب زوجها فإن قلبها يملأ غيرة وحسدا على الزوجة الثانية وإن لم تكن تحب زوجها ولكنها سترى بأن قيمتها فى العائلة تنقص. وأن التعدد فى رأيه يؤدى إلى التشاحن والتنازع بين الزوجات ولا يعتبر ببعض الحالات النادرة التي فيها التئام بين الزوجات ثم يقول" بأن قلق النساء زاد لتصريح الفقهاء بالعدل فى النفقة والمبيت ولا مؤاخذة فى الميلان القلبي".[٧٥] ثم قال بأن الزوج المهذب سيكون على قلبه أثر سيئ لأنه سيشعر بأنه سبب شقاء زوجته".[٧٦] كذلك قال قاسم أمين فى مضار تعدد الزوجات"بأن الأولاد الذين ينشأون من أمهات مختلفة سيكون بينهم النفاق والشقاق ولن يعيشوا بالمحبة والشفقة فيما بينهم بل سيملأ قلوبهم بالعداوة والبغض فيما بينهم والذي سيرون من تشاجرأمهاتهم سيكون له الأثرالسيئ على قلوبهم، وسيظهر أثره رويدا من النفاق وسوء الأخلاق".وضرب مثالا لذلك بالممالك الغربية تعقد صلحا فى الظاهر ثم تنصرف إلى الإستعداد الحربى خفية وتتحين الفرص للمهاجمة.وضرب قاسم أمين مثالا للعائلة التي يكون فيها المحبة بين أفراد من أم وأب واحد".[٧٧]

ونرى أن قاسم أمين ينسى بأنه قد ينشأ التئام بين أولاد من أمهات مختلفة كأن تطلق زوجة وتزوج بآخر وتنجب منه أولاد فيعيش هؤلاء فى سعادة وهناك كثيرمن العائلات وجدت فيه المحبة بين أولاد لأمهات مختلفة وليس كل العائلات التي لا تعدد سعيدة كما صورها قاسم أمين، بل نجد أن هناك نفورا وتشاجرا بين أولاد الأم الواحدة والأب واحد أيضا. ثم يزعم أن نصوص القرآن الكريم فى تعدد الزوجات تحتوى إباحة وحظرا فى

آن واحد. فالله تعالى يقول:" (فَانْكِحُوْا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَنْ لَا تَعْدِلُوْا فَوَاحِدَةً أَوْمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ لاَ تَعُوْلُوْا)[٧٨] ويقول: "(وَلَنْ تَسْتَطِيْعُوْا أَنْ تَعْدِلُوْا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلاَ تَمِيْلُوْا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوْهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تَصْلِحُوْا وَتَتَّقُوْا فَإِنَّ اللهَ كَانَ غَفُوْرًا رَحِيْماً).[٧٩] فالشارع سبحانه وتعالى – فى زعمه – قد علق وجوب الإكتفاء بواحدة على مجرد الخوف فى عدم العدل، ثم صرح بأن العدل غير مستطاع.[٨٠] فيرى قاسم أمين أن خيرما يعمله الرجل هوانتقاء زوجة واحدة، إلا فى حالات الضرورة كالمرض المزمن وأيضا نصح الزوج بالصبرعلى زوجته ولا يعدد، ومثل أن تكون المرأة عاقرا. أما فى غير ذلك فليس تعدد الزوجات – فى نظره – إلا حيلة شرعية لقضاء شهوة بهيمية[٨١].

أما الطلاق فيبين قاسم أمين أنه كان مشروعا عند اليهود والفرس واليونان والرومان، و لم يمنع إلا فى الديانة المسيحية بعد مضي زمن نشأها ثم يقول:"إن الذين يريدون بالزواج أن لا يحل عقدته إلا بالموت إنما يطمحون للكمال المطلق، ولا يراعون الطبيعة البشرية والضرورات التي تجعل الصبر على العشرة من لا تمكن معاشرته فوق طاقة البشر. وهذا هو الذى دعا الأمم المسيحية إلى الضغط على الكنيسة حتى أباحت الطلاق، ولكنه يذهب إلى أن إباحة الطلاق بدون قيد لاتخلو من ضرر، وإن كانت منافعها أكثر من مضارها. ولذلك وضعت الشريعة الإسلامية للطلاق أصلا يجب أن ترد إليه جميع الفروع في أحكامه وهو أن الطلاق محظور في نفسه، مباح للضرورة، ويورد قاسم أمين الأدلة على ذلك من القرآن ومن الحديث. فالله تعالى يقول :" فَإِنْ كَرِهْتُمُوْهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوْا شَيْئاً وَيَجْعَلُ اللهَ فِيْهِ خَيْراً كَثِيْرًا "[٨٢]. ويقول:" فَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوْا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ، وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا،......إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيْمًا خَبِيْرًا" [٨٣]. وجاء في الحديث :"أبغض الحلال إلى الله الطلاق" [٨٤] ثم يقول :" إن الأصل في الطلا ق الحظر، والإباحة للحاجة إلى الخلاص. ولكن الفقهاء – في زعمه– لم يراعوا في التفريع تطبيق هذا الأصل الجليل على طريقة واحدة متساوية، و لم تطرد طريقتهم على وتيرة واحدة في تطبيق الأحكام على الوقائع. ويورد أمثلة بعض الأحكام الفقهية المتعلقة بالطلاق ويناقشها. ثم يقول :" إنه لا ينبغي أن يقع الطلاق بكلمة لمجرد التلفظ بها مهما كانت صريحة. فاللفظ لا يجب الإلتفات إليه في الأعمال

الشرعية. إلا من جهة كونه دليلا على النية. وينتهي المؤلف إلى مشروع قانون للطلاق لا يتم فيه الطلاق إلا أمام القاضي، في وثيقة رسمية بحضورشاهدين، بعد نصح الزوج أولا، ثم تحكيم أهل الزوج وأهل الزوجة ثانيا،على أن يتقدما بتقريرفي حالة إخفاق مسعاهما في الصلح.[٨٥]

ثم يورد احصائية لحالات الزواج والطلاق في القاهرة خلال فترة ثمان عشرة سنة.

أما الخاتمة: فقد تناول المؤلف فى الخاتمة موضوعين : العلم والعزم، فالعلم وسيلة الأمة إلى معرفة مطالبها وتخليصها من سيئات عاداتها. ثم ترقية أحوالها لتعيش للمستقبل، ومعرفة الشريعة تدلنا على أنها حدود عامة ولهذا يجد الناس فيها ما يوافق مصالحهم على إختلاف الأزمنة والأمكنة.

وأما العزيمة، فهي تحت الإرادة على تحقيق كل خير يكشفه العلم، فإستحسان شيئ لاقيمة له دون ارادة تنفذه، والرجل الحق من يحاول معرفة الخير. ويجهد وسعه ليحققه فلا بد لنا من العلم، والعزيمة فى تحقيق التقدم.

وأخيرا اقترح المؤلف تكوين جمعية من الأباء الراغبين فى تعليم بناتهم على هذه الطريقة لتحقيق تربية بناتهم.والدعوة لإصدار قوانين تضمن للمرأة حقوقها الشرعية دون التقيد بمذهب واحد كالمذهب الحنفى الذي تقيدت به بعض الدول. والحقيقة أن المذهب الحنفى هوالمذهب الذي يأخذ بالإحتياط والحذر فى الأمور التي تتعلق بالمرأة ولذلك خصه قاسم أمين بذكره. ودعوة قاسم أمين إلى الإجتهاد يعنى التحديث فى أمور لم ينقل عن السلف.[٨٦]

ثالثا: كتاب المرأة الجديدة :

سبب تأليفه لهذا الكتاب:

وقد آثاركتاب (تحرير المرأة) موجة من المعارضة كان أكثرها مقالات صحفية وليس فيها من الكتب إلا كتاب(تربية المرأة والحجاب) لمحمد طلعت حرب.و لم يلبث قاسم أمين حين واجه المعارضة وأحرجته أن كشف عن أهدافه الحقيقية في كتاب له ظهر في العام التالي وهو كتاب (المرأة الجديدة) الذي بدأ فيه أثر الحضارة الغربية واضحا وبصمات الفكرالغربي واضحة،فالتزم فيه مناهج البحث الأوروبية الحديثة،التي ترفض كل المسلمات

والعقائد السابقة ولا يقبل إلا ما يقوم عليه دليل من التجربة أوالواقع.[٨٧] وحمل فيه على المدنية الإسلامية وادعى أن لا سبيل إلى الإصلاح الإجتماعى سوى اقتفاء آثار الغرب – وفي زعم قاسم أمين – هذا هوالداء الذي يلزم أن نبادر إلى علاجه، وليس له دواء إلا أن نرى أولادنا على أن يعرفواشئوون المدنية الغربية ويقتفوا على أصولها وفروعها وآثارها) وبعد أن كان يتشدق فى كتابه بأنه يدعوا إلى التمسك بالحجاب إلى التمسك بالحجاب الذى يعني سفور الوجه، إذا به فى كتابه "المرأة الجديدة" يصرح بأن(الحجاب هوعادة لا يليق استعمالها فى عصرنا).[٨٨]

أهم الموضوعات التي احتوى كتابه" المرأة الجديدة":

طلب قاسم أمين إلى المصريين أن يتخلصوا مما وقر في نفوسهم من أن عاداتهم هي أحسن العادات، وأن ما سواها لايستحق الالتفات. وقال : إن طالب الحقيقة لا يجب أن يجري فى إصدار أحكامه على هذا الضرب من التساهل، بل يجب أن يعود نفسه على أن يجري نقده للحوادث الإجتماعية على أسلوب علمي[٨٩]. ونبه في موضع آخر من كتابه إلى وجوب الأخذ بالأسلوب العلمي، إذا أردنا أن نصل إلى نتيجة صحيحة فى معرفة حقوق الناس، فننظر في الوقائع التي تمر أمامنا، فنتصور نظريتنا مطبقة في قرية، ثم في مدينة، ثم في إقليم، ونتمثل النساء في جميع أعمارهن واحوالهن وطبقاتهن، بنات ومتزوجات ومطلقات وأرامل. ونتصورهن في المدرسة،وفي البيت، وفي الغيط، وفي الدكان، وفى المصانع. ثم نستعرض حال النساء في غير بلادنا. ونقف على حالة المرأة في الأزمان الخالية والتقلبات التي طرأت عليها[٩٠].

ويبين قاسم أمين في موضع ثالث من كتابه أن معظم الكتاب يبنون أحكامهم على الشهوات. وإن وجدبينهم المنصف كان نصيبه أن يتهم بالتجرد عن الوطنية والعداوة للدين والملة وأشدهم اقتصادا في ذمه يرميه بالطيش والخفة، توهما منه أن الاعتراف بفضل الأجنبى مما يزيد طمعا لأجانب فينا. والواقع أن السبب في طمع الأجانب فينا ليس هو إعترافنا بانحطاطنا، وإنما هو ذلك الإنحطاط نفسه[٩١]. ويؤكد في موضع رابع من كتابه أن العلم ليس منافيا للإحساس الديني كما يزعم كثير من الناس ويضرب لذلك مثلا بالذي يثني على مؤلف عظيم قبل أن يقرأ كتبه. ثم يتساءل : فهل إذا قرأها يضعف شعوره بعظمته ؟ ويؤكد

أن خدمة العلم هي عبادة، لأنها إعتراف ضمني بأن للمخلوقات قيمة عالية، وذلك يقود – حسب زعمه – حتما إلى الاعتراف بعظمة خالقها. هذا إلى أن الاشتغال بالعلم يقوي حكم العقل ويهذب النفس وينمي الإحساس الديني، لأنه يكسب صاحبه الإعتماد على ضبط النفس، الذي هو من أهم أركان الأدب."[٩٢]

ويناقش قاسم أمين فى كتابه (المرأة الجديدة) بعض حجج المعارضين لسفور المرأة ومشاركتها الرجل في الأعمال، مثل قولهم :"إن المرأة مخلوق ناقص العقل والتفكير، وأنها أضعف عزيمة من الرجل وأقل قدرة منه على مقاومة الشهوات ".

فيرد على ذلك بأن التشريح الفسيولوجي والتجربة في البلاد التي منحت المرأة حريتها قد أثبتت أن المرأة مساوية للرجل في الملكات. كما يرد عليه بأن الحكم على إستعداد المرأة لا يكون عادلا ومنصفا ومستوفيا لشرائط البحث العلمي المحايد إلا إذا منحنا المرأة الفرصة التي منحها الرجل لتثقيف عقله وتدعيم ملكاته خلال الأجيال الطويلة ويرفض قاسم أمين أن يصدق ما يذاع من أثر حرارة الجو في إثارة الشهوة، مما يتذرع به الداعون إلى الحجاب في البلاد الشرقية الحارة، ما لم يقم على صحة هذا الزعم دليل علمي. ويستشهد بكلام كاتب إيطالي يقول إن العفة تكسب بمنح الحرية للمرأة، وأن اختلاف الأجواء لا أثر له في ذلك. ويعتمد المؤلف على الدراسات النفسية الحديثة وعلى علم وظائف الأعضاء في التدليل على أن قوة البنية وسلامة الأعصاب هما من أهم ما يعين الإنسان على ضبط نفسه، وأن ضعف البنية واعتلال الأعصاب هما من أهم الأسباب التي تجعل الإنسان آلة تلعب بها الشهوات والأهواء. ثم يطبق هذه النتائج العلمية على نسائنا، فيزعم أن نظام الحياة عندنا يبعث في المرأة شدة الميل إلى الشهوات، لأن سجنها والتضييق عليها في وسائل الرياضة يعرضها دائما لضعف الأعصاب. ومتى ضعفت الأعصاب اختل التوازن في القوى الأدبية. ثم يقول : إن زيادة الحجرعلى البنت كلما تقدمت في السن، والتشدد في نهيها عن مخالطة الرجل، يلفت ذهنها في سن مبكرة إلى ما بين الجنسين من إختلاف. ويقول قاسم أمين : إن الحرية في الحياة السياسية هي منبع الخير للإنسان وأصل ترقيته وأساس كماله الأدبي. ثم يطبق ذلك على المرأة فيقول:" عاشت الأمة المصرية أجيالا في الاستعباد السياسي. فكانت النتيجة انحطاطا عاما في جميع مظاهر حياتها : انحطاط في

العقول، وانحطاط في الأخلاق وانحطاط في الأعمال. وما زالت تهبط من درجة إلى أسفل منها حتى انتهى بها الحال إلى الضعيف.فلما تخلصت من الاستعباد رأت نفسها في أول الأمر في حيرة لا تدري معها ماذا تصنع بحريتها الجديدة ". و"هكذا يكون الحال بالنسبة لحرية النساء. أول جيل تظهر فيه حرية المرأة تكثر الشكوى منها، ويظن الناس أن بلاء عظيما قد حل بهم، لأن المرأة تكون في دور التمرين على الحرية. ومع مرور الزمن تتعود المرأة على استعمال حريتها وتشعر بواجباتها شيئا فشيئا، وترتقي ملكاتها العقلية الأدبية. وكلما ظهر عيب في أخلاقها يداوي بالتربية حتى تصير إنسانا شاعرا بنفسه" [٩٣] ثم يبين المؤلف أن النمو الأدبي لا يختلف في سيره عن النمو المادي. فالطفل يحبو قبل أن يمشي.ثم يستعلم المشي بالتدريج مستندا الى الحائط أو إلى قائد يقوده.، فإذا استقل بالمشي لم يحسنه إلا بعد أن يتعرض للوقوع على الأرض مرات فلا ينبغي أن نكون كالأب الأحمق الذي يخاف على ولده إذا مشى أن يسقط على الأرض فيمنعه من المشي، حتى إذا كبر عاش مقعدا مشلول الرجلين.

ويقسم المؤلف مسئوليات المرأة إلى ثلاثة أقسام:

(أ) ما تحفظ به نفسها.

(ب) ما تفيد بها أسرتها.

(ج) ما تفيد به المجتمع الإنساني.

وهو يهمل الكلام عن القسم الثالث الذي يتصل بمشاركة المرأة في الأعمال العامة لأن دورها فيه لم يكن في نظره قد جاء وقتذاك. ويقول في القسمين الآخرين : "إنه مهما اختلف الناس في فهم طبيعة المرأة، فليس فيهم من ينكر أنها لا تستغني عن الأعمال التي تحافظ بها على قوتها الحيوية، وتعدها للقيام بحاجات الحياة الإنسانية وضروراتها،كما أنها لا تستغني عن الأعمال والمعارف التي تتعلق بواجبتها في الأسرة"[٩٤]. ثم يقول : إننا قد ورثنا الصورة التي كوناها عن المرأة من العرب الذين قامت حياتهم — حسب زعمه — على الغزو والنهب، ومن ثم لم يكن فيها للمرأة نصيب تشارك به في الدولة. ثم لم يكن لها نصيب فى تربية الولد، لأن تربيته كانت مقصورة على تغذية جسمه، ليشب مقاتلا، لا عالما فاضلا. وصورة المرأة هذه التي ورثها المسلمون — حسب زعمه — عن العرب قد تكون صحيحة

بالقياس إلى الماضي، ولكنها مزورة إذا نظرنا إلى الحال والمستقبل،لأن الحالة الإجتماعية والإقتصادية قد تغيرتا تغيرا تاما. فقد اتسع الميدان لتجادل العقول. والمرأة إنسان مثل الرجل، زينته الفطرة بموهبة العقل.فمن حقها ان تسمو إلى مرتبة الرجل ويعتمد قاسم أمين على إحصاء سنة ١٨٩٧م، الذي يدل على عدد النساء اللاتي يشتغلن بحرفة أوصنعة يساوي٢% من جملة النساء[95]. ثم يتساءل قاسم أمين : أفلا ينبغي لهذا العدد من النسوة اللائي تقضي عليهن ضرورات الحياة لمزاحمة الرجال أن يزودن بما يعينهن في معركة الحياة؟.والمؤلف يسلم بأن الفطرة قد أعدت المرأة للإشتغال بالأعمال المنزلية وتربية الأولاد.ولكنه يرى أن من الخطأ أن نبني على ذلك أن المرأة لا يلزمها أن تستعد بالعلم والتربية للقيام بمعاشها وما يلزم لمعيشة أولادها عند الحاجة.ففي النساء من لم تتزوج، وفيهن من انفصلت عن الزوج بالطلاق أو الموت، وفيهن المحتاجات لمعاونة الزوج لفقره أو لعجزه أ و لكسله. وفي المتزوجات عدد غير قليل ممن ليس لهن أولاد. ثم يعجب قاسم أمين للذين يعارضون تعليم المرأة. فهم يبيحون للمحتاجات منهن أن يعملن ويقولون : إن الضرورات تبيح المحظورات. ولكنهم ينسون أن مذهبهم هذا ليس له إلا دلالة واحدة، وهو أنهم يريدون قصر المرأة على الأعمال الحقيرة الممتهنة، كالخدمة في البيوت، وبيع السلع الزهيدة في الطرقات.

أما القسم الثاني الذي يتكلم المؤلف فيه عن مسؤلية المرأة أمام أسرتها، فهو يعتمد فيه على إحصائية وفيات الأطفال في القاهرة، ويقارنه بوفيات مدينة ضخمة كلندن، فيرى أن عدد الموتي من أطفال القاهرة يزيد على ضعف عدد الموتى من أطفال لندن.ويرجع ذلك إلى جهل الأم المصرية بالثقافة الصحية. وهويقول:إن المرأة المهذبة الحرة هي وحدها التي يمكن أن يكون لها نفوذعظيم في أسرتها.أما المرأة الجاهلة المستعبدة فلا يمكن أن يتجاوز نفوذها نفوذ رئيسة الخدم في البيت.فالمرأة المصرية الجاهلة لا تعرف كيف تعاشر زوجها، ولا يمكنها أن تدير بيتها، ولا تصلح لأن تربي أولادها. ذلك لأن أعمال الإنسان تصدرعن أصل واحد، هوعلمه وإحساسه فإن كان هذ الأصل راقيا كان أثره في كل شئ كبيرا نافعا حميدا. وإن كان منحطا كان أثره في كل شيئ حقيرا ضارا غير محمود.ويضرب المؤلف أمثلة لفساد تربية الأبناء من أثرجهل الأم،مثل منع الطفل من اللعب كي لايشوش عليها،ومثل تخويفه

بموهمات تثيرفي ذهنه خيالات قد تلازمه طول عمره.[٩٦] ومثل وعده بوعوده لا تفي بها إذا أرادت مكافأته وإظهار الغضب عليه ونهره بالصوت الشديد وإزعاجه بالتهديد،ثم ضمه وتقبيله وإظهار غاية الندم حين تشاهد انفعاله نتيجة ماأتت.[٩٧]

ويتساءل المؤلف عن علة تأخرالأمم الإسلامية، ويفترض لذلك ثلاثة أسباب، هي:

الإقليم، والدين، والأسرة. ثم يستعبد الفرضين الأولين، لأنه لم يثبت بأدلة علمية صحيحة أن الحرارة تؤثر في الجسم والعقل تأثيرا سيئا، ولأن المسلمين قد برهنوا في ماضيهم على أن دينهم عامل من أقوى العوامل للترقي فى المدنية. ولذلك فهو يرد تأخر المسلمين إلى نظام الأسرة الفاسد بسبب جهل المرأة. ويؤيد ذلك بأن الأمم الشرقية التي لا تدين بالإسلام تشاركهم في ذلك، لأن وضع المرأة فيها لا يختلف عن وضعه في الأمم الإسلامية. ويقول المؤلف: إن العلوم التي يتلقاها الأبناء في المدرسة لا تزيد قيمتها عن أن تكون محفوظات لا ينفذ منها شيئ إلى باطن نفوسهم، فتكون داعية للعمل حافزة إليه.[٩٨] ويختم كلامه عن هذا القسم بقوله :"ولكن المتأمل إذا روى في الأمور يجد أن لسير الإنسانية قوانين خاصة يجب مراعاة أحكامها لنمو الحياة واستكمال قواها، سواء في الأفراد أوفي الجماعات، وأن كل مخالفة لهذه القوانين لها أثر سيئ وضررعظيم يلحق الفرد أو الهيئة الإجتماعية. فالتعويل على حرمان المرأة من حريتها في إتقاء ضرر ولكن من المحقق أنه بجانب هذه الفائدة الخاصة المؤقتة يجلب ضررا عاما مستمرا وهو تعطيل النمو في ملكات صنف النساء بتمامه".[٩٩]

وقد إتسم كتاب (المرأة الجديدة)- إلى جانب هذا الطابع الغربي الذي يعتمد على آراء مفكري الغرب، ويصطنع أساليبهم في الإحصاء وفي الدراسات النفسية والإجتماعية والتجريبية - بمهاجمة علماء الدين الذين هاجموه من قبل هجوما عنيفا واتهموه بالتفرنج وبإفساد تقاليد الإسلام، عندما نشر كتابه الأول (تحرير المرأة) وقد جرته مهاجمة رجال الدين إلى القسوة في الحكم على الحضارة الإسلامية في بعض الأحيان. فقد كان معارضو قاسم أمين يرون أن نهضتنا يجب أن تعتمد على تراثنا القديم وعلى حضارتنا الإسلامية وحدها. فهو يرد على ذلك بأن الحضارة الإسلامية قامت على دعامتين: الأساس الديني الذي كون من القبائل العربية أمة واحدة، والأساس العلمي الذي ارتفعت به الأمة الإسلامية وآدابها. ثم يزعم أن العلم كان وقتذاك ضعيفا في أول نشأته، وكانت أصوله ضربا

من الظنون التي لم تؤيدها التجربة. ولذلك كانت قوة العلم ضعيفة بجانب قـوة الـدين، فتغلب الفقهاء على رجال العلم، ووضعوهم تحت رقابتهم، وزجوا بأنفسهم في المـسائل العلمية، ينتقدونها و يفتون بمخالفتها لنصوص القرآن والحديث التي يؤولونها وبذلك حملوا الناس – حسب زعمه – على إساءة الظن بالعلم، فنفروا منه وهجروه.وانتهى بهم الأمر إلى الاعتقاد بأن العلوم جميعا باطلة إلا العلوم الدينية.[١٠٠]

ثم تقدمت العلوم وظهرت المكتشفات الحديثة،واستطاع العلم أن يشيد بناء متينـا لا يمكن لعاقل أن يفكر في هدمه. وبذلك تغلب رجال العلم على رجال الديـن.وينتهي قاسم أمين من هذا العرض إلى أن التمدن الإسلامي قد بدأ وانتهي قبل أن يكشف الغطاء عن أصول العلم. فكيف يمكن أن نعتقد أن هذا التمدن كان نموذج الكمال البشري؟.... ثم يبين أن كثيرا من ظواهرالتمدن الإسلامي لا يمكن أن تدخل في نظام معيشتنا الإجتماعية الحالية. ويضرب الأمثلة من نظم هذا التمدن في الحكم وهي في رأيه أقل من المستوى الذي بلغه اليونان والرومان في كفالة الحريات كما يضرب أمثلة من نظام الأسرة ليبين أنه كان غاية في الإنحلال، وأن الفرق واسع بينه وبين النظم والقوانين التي وضعها الأوروبيون لتأكيد روابط الأسرة. ويختم ذلك متسائلا:إذا كانت هذه حالهم. فما الذي يطلب منا أن نستعيره منها ؟..... وأي شيئ منها يصلح لتحسين حالنا اليوم ؟.... ثم يقول : متى تقرر أن المدنية الإسلامية هي غيرما هو راسخ في مخيلة الكتاب الذين وصفوها بما يحبون أن تكون عليه، لا بما كانت في الحقيقة عليه وثبت أنها كانت ناقصة من وجوه كثيرة، فسيان عندنا بعد ذلك أن احتجاب المرأة كان من أصولها أو لم يكن. وسواء صح أن النساء في أزمان خلافة بغداد والأندلس كن يحضرن مجالس الرجال أو لم يصح. فقد يصح أن الحجاب هوعادة لا يليق استعمالها في عصرنا"[١٠١]ويدعوا قاسم أمين في آخركتابه دعوة صريحة إلى الأخذ بأساليب الحضارة الغربية، فيقول – بعد أن يبين أن إعجابنا الشديد بالماضي هونتيجـة لـشعورنا بالضعف والعجـز :"هذا هو الداء الذي يلـزم أن نبادر إلى علاجه. وليس له دواء إلا أننا نربي أولادنا على أن يتعرفوا شئون المدنية الغربية ويقفوا على أصـولها وفروعهـا وآثارها.إذا أتى ذلك الحين – ونرجوأن لا يكون بعيدا – انجلت الحقيقة أمام أعيننا ساطعة سطوع الشمس وعرفنا قيمة التمدن الغربي وتيقنا أنه من المستحيل أن يتم إصلاح مـا في

أحوالنا إذا لم يكن مؤسسا على العلوم العصرية الحديثة، وأن أحوال الإنسان مهما إختلفت، وسواء كانت مادية أو أدبية، خاضعة لسلطة العلم. لهذا نرى أن الأمم المتمدنة على إختلافها في الجنس واللغة والوطن والدين متشابهة تشابها عظيما في شكل حكومتها وإدارتها ومحاكمها ونظام عائلتها ولغاتها وكتابتها ومبانيها وطرقها بل في كثير من العادات البسيطة كالملبس والتحية والأكل هذا هوالذي جعلنا. (نضرب الأمثال بالأوروبيين) ونشيد بتقليدهم، وحملنا على أن نستلفت الأنظار إلى المرأة الأوروبية".[١٠٢] ويختم قاسم أمين كتابه بالإشارة إلى أن ما انبعث في الشرقيين من شوق إلى مجاراة الغربيين، قد حدث بعدأن إختلطوا بهم فتبينوا سوء حالتهم الإجتماعية حين قاسوها بحالة الغربيين. ويقول إن الكتاب والمرشدين قد فاتهم أن كلامهم لا يترك أثرا إلا إذا وصل إلى النساءاللائي هن حجرالزاوية في تربية الأجيال. فإذا أراد المصريون أن يصلحوا حالهم، فعليهم أن يبدءوا الإصلاح من أوله.[١٠٣] "وهذه الحقيقة مع بساطتها و بداهتها قد إعتبرها الناس يوم جاهرنا بها في العام الماضي ضربا من الهذيان. وحكم الفقهاء بأنها خرق في الإسلام.[١٠٤]

الهوامش

[١] بعض المؤرخين ذكر تاريخ ولادته ١٨٦٥م انظر: تاريخ الأدب العربى، حنا الناخورى، ٣/١٠٥ ومعجم المؤلفين، عمر رضا كحاله. ص ١١٤ وبعضهم ذكر (١٨٦١ م) انظر: المنهاج الجديد فى الأدب العربى.عمر فروخ. ط١. بيروت: دار العلم للملايين. ١٩٦٩م. ص ٢٠٢.

[٢] (٢) المصدر السابق.٢ /٢٠٢.

[٣] قاسم أمين. أحمدقاسم خاكي. القاهرة:دار احياء الكتب العربية.١٩٤٤م.ص ٤-٥

[٤] قاسم أمين. ماهرحسن فهي.القاهرة : مطبعة مصر. ص ٣٣.

[٥] المصدر السابق. ص ٤٧-٥١.

[٦] المصدر السابق.

[٧] هومصطفى رياض "باشا " بن اسماعيل بن احمد بن حسن الوزان، ولد عام ١٢٥٠هـ - ١٨٣٤م. وتوفي عام ١٣٢٩هـ - ١٩١١م. وزير عصامي مصري. لـه : مظـاهر الرجال، ظواهر الأعمال. (الأعلام. ٧/ ٢٣٣).

[٨] قاسم أمين. وداد سكاكيني. مصر: دار المعارف. ١٩٦٥م. ص ٣٤.

[٩] قاسم أمين. أحمدخاكي. ص١٥.

[١٠] المصدر السابق. ص١٢٨-١٣٢.

[١١] المصدر السابق. ص ١٨-١٩.

[١٢] قاسم أمين. وداد سكاكيني. ص ٥٣.

[١٣] عودة الحجاب القسم الأول (معركة السفور والحجاب).محمد أحمد المقـدم. ص ١٠-١١.

[١٤] المصريون دفاعا عن الإسلام. قاسم أمين. ترجمة سعاد التريكي.المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسة "بيت الحكمة". ١٨٩٤م. ص١١.

[١٥] المصدر السابق. ص٦٢.

[١٦] المصدر السابق. ص ١٢.

[١٧] المصدر السابق. ص ١٦.

[١٨] المصدر السابق. ص١٧-١٨.

[١٩] المصدر السابق. ص٢١.

[٢٠] المصدر السابق. ص ٣٣-٣٥.

[٢١] المصدر السابق. ص٤٧.

[٢٢] المصدر السابق. ص٥٨.

[٢٣] المصدر السابق. ص٥٨ — ٥٩.

[٢٤] وهي ابنة الأمير" مصطفى فاضل"باشا نجل " ابراهيم" باشا ابن " محمد علـــي" باشـــا الكبير، كان والدها"مصطفى فاضل "يعتبر نفسه أحق بعرش مصر من الخديوى اسماعيـــل، ومن هنا كانت الأميرة نازلي تعلن الحرب على الخديو عباس.(اه مـــن جريـــدة المـــساء، الخميس ٤ أغسطس ١٩٨٣م من مقالة (هل انتحر محرر المرأة ؟) للصحافي مصطفى أمين).

[٢٥] معركة السفور والحجاب. محمد أحمد المقدم. ص١١-١٣.

[٢٦] الإتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر. محمد محمدحسين. ١/ ٢٨١-٢٨٢.

[٢٧] الأخوات المسلمات وبناء الأسرة القرآنية.محمود الجوهري ومحمدخيال. الإسكندرية : دار الدعوة.١٩٨٠م. ص٢٤٧.

[٢٨] "قاسم أمين"الأعمال الكاملة" المقدمة: دراسة في فكر قاسم أمين".محمد عمارة. مصر، ١/ ١٤٤

[٢٩] تحرير المرأة. قاسم أمين. ص٢.

[٣٠] المصدر السابق . ص٢.

[٣١] المصدر السابق. ص٢.

[٣٢] المصدر السابق. ص٧.

[٣٣] المصدر السابق. ص٧-٨.

[٣٤] المصدر السابق. ص١٠.

[٣٥] المصدر السابق. ص١١.

[٣٦] المصدرالسابق. ص١٦.

[٣٧] المصدرالسابق. ص١٧.

[٣٨] المصدرالسابق. ص١٨-١٩.

[٣٩] المصدرالسابق.ص١٩.

[٤٠] المصدرالسابق. ص١٩.

[٤١] المصدرالسابق. ص٢٠.

[٤٢] المصدرالسابق. ص٥٢.

[٤٣] المصدرالسابق. ص٤٧.

[٤٤] المصدر السابق. ص ٤٧

[٤٥] المصدر السابق ص ٤٨

[٤٦] المصدرالسابق. ص٤٩.

[٤٧] المصدرالسابق. ص٥٣.

[٤٨] المصدرالسابق. ص ٥٦.

[٤٩] المصدر السابق. ص ٥٦.

[٥٠] النور: ٣٠-٣١.

[٥١] تحريرالمرأة. قاسم أمين. ص٥٩.

[٥٢] المصدر السابق . ص٦٠

[٥٣] المصدر السابق. ص ٦١.

[٥٤] المصدر السابق. ص٦٥.

[٥٥] الأحزاب :٥٣.

[٥٦] الاحزاب : ٣٢.

[٥٧] تحريرالمرأة. قاسم أمين. ص٦٦.

[٥٨] المصدر السابق. ص٧٠.

[٥٩] المصدر السابق. ص٧٣.

[٦٠] المصدر السابق. ص٧٥-٧٦.

[٦١] المصدر السابق. ص٧٦.

[٦٢] المصدر السابق. ص٧٦.

[٦٣] المصدر السابق. ص٧٩.

[٦٤] المصدر السابق. ص٨٤.

[٦٥] المصدر السابق. ص٨٤.

[٦٦] المصدر السابق. ص٨٥.

[٦٧] المصدر السابق. ص٩٢.

[٦٨] تحرير المراة. ص ٩٥-٩٦.

[٦٩] المصدر السابق.ص ٩٨.

[٧٠] المصدر السابق. ص٩٩.

[٧١] المصدر السابق. ص١٠٠-١٠٨.

[٧٢] المصدر السابق. ص١١٣.

[٧٣] الروم : ٢١.

[٧٤] تحريرالمرأة. قاسم أمين. ص١٢٠.

[٧٥] المصدر السابق. ص ١٤٣.

[٧٦] المصدر السابق. ص ١٤٣.

[٧٧] نفس المصدر السابق.

[٧٨] النساء : ٣.

[٧٩] النساء : ١٢٩.

[٨٠] تحرير المرأة. ص١٤٥-١٤٦.

[٨١] الإتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر. محمد محمد حسين. ١/ ٢٩٧-٢٩٩.

[٨٢] النساء : ١٩.

[٨٣] النساء : ٣٥.

[٨٤] سنن أبي داود، الحافظ سليمان الأشعث السجستاني، تحقيق : سعيد محمد اللحام. كتاب الطلاق، باب في كراهية الطلاق، ط١، دار الفكر، ١٤٠١هـ، ١٩٩٠م. ١/٤٨٤، حديث رقم ٢١٧٨

[٨٥] تحرير المرأة. ١٥٤-١٦٣.

[٨٦] المصدر السابق. ص١٦٤-١٦٨.

[٨٧] الإتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر. ص٣٠٢.

[٨٨] عودة الحجاب (معركة السفوروالحجاب). أحمد مقدم. ص ٢١-٢٢.

[٨٩] المرأة الجديدة. قاسم أمين. مصر: مطبعة المعارف. ص٧٥.

[٩٠] المصدر السابق. ص٨٣.

[٩١] المصدر السابق. ص١٩٤.

[٩٢] المصدر السابق. ص ٢٠١-٢٠٣.

[٩٣] المصدر السابق. ص٧٠-٧١.

[٩٤] نفس المصدر السابق.

[٩٥] الإتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر. محمد محمد حسين. ١/ ٣٠٦.

[٩٦] المصدر السابق. ص ٣٠٧.

[٩٧] المصدر السابق. ص ١٣٨

[٩٨] المرأة الجديدة. ص ١٣٩.

[٩٩] المصدر السابق.ص ١٥٤.

[١٠٠] نفس المصدر السابق.

[١٠١] المصدر السابق. ص ١٨٣.

[١٠٢] المصدر السابق. ص١٨٥ — ١٨٦.

[١٠٣] المصدر السابق. ص ٢١٥.

[١٠٤] الإتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر. ص ٣١١.

المصادر والمراجع

(١) آثار باحثة البادية. جمع وتدوين مجد الدين حفني ناصف. "مقالة المرأة والحجاب" المؤسسة المصرية العامة للكتاب. ١٩٦٢م.

(٢) الأخوات المسلمات وبناء الأسرة القرآنية.محمود الجوهري ومحمد خيال. الإسكندرية : دار الدعوة.١٩٨٠م.

(٣) الإتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر. محمد محمد حسين. الأهرام. ١٩٢٨م

(٤) تحريرالمرأة.قاسم أمين. مكتبة الترقي.القاهرة: ١٣١٦هـ - ١٨٩٩م

(٥) سنن أبي داود. الحافظ سليمان الأشعث السجستاني. تحقيق : سعيد محمد اللحام. كتاب الطلاق. باب في كراهية الطلاق. ط١. دار الفكر. ١٤٠١هـ. ١٩٩٠م.

(٦) عودة الحجاب (القسم الأول معركة الحجاب والسفور). محمد أحمد مقدم. الرياض: دار طيبة. ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م

(٧) قاسم أمين " الأعمال الكاملة" (المقدمة: دراسة فى فكر قاسم أمين). محمد عمارة. مصر.

(٨) قاسم أمين. أحمد قاسم خاكي. القاهرة: داراحياء الكتب العربية. ١٩٤٤م

(٩) قاسم أمين. وداد سكا كيني. مصر: دارالمعارف. ١٩٦٥م.

(١٠) المرأة الجديدة. قاسم أمين. مصر: مطبعة المعارف.

(١١) المصريون دفاعا عن الإسلام والمسلمين. قاسم آمين. ترجمه سعاد التريكي المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدارسة "بيت الحكمة ".١٨٩٤م.